

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٢١ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهي مكية .  
واستثنى منها بعضهم آية<sup>(١)</sup> ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا )  
وهي مائة واثنى عشرة آية . وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل  
والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تлады .  
قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالذ : المال القديم الذى ولد  
عندك ، وهو تقيض الطارف .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أُقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« أُقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخرى وهو عذابهم « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذبون به . وإنما كان مقرباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى (١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا \* وَنَرَاهُ قَرِيبًا) وقال تعالى (٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفریطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فى العنوان ما يرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدينوى والأخرى لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم ، كما أشير إليه فى آية (٣) (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ) ووعد به النبى وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرى ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(١) [٧٠ / المعارج / ٧٠٦] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٥ / المائدة / ٥٢] .

« مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقرير لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيهه ، أن تخشع له القلوب وتستخذي له الأنفس .

قال الزمخشري : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلمهم يتعظون . فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التي هي أحق الحق وأجد الجد ، إلا لعبا وتلهيا واستسجاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

#### تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع . وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية . فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف . فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً ، أنه وجد تلك الحروف والأصوات في الجسم . كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبي عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوه دال على الصفة القديمة النفسية ، التي هي الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلغوها إلى أئمتهم ، هو محدث موصوف بالتنوير والتكثير والنزول . لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرة ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رأها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، هذا الاحتجاج من الأغلاط ، وعبارته في كتابه ( مطابقة المنقول للمعقول ) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم . والحديث في لغة العرب العام ليس هو الحديث في اصطلاح أهل الكلام . فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً ، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن . كقوله تعالى (١) ( كَأَلْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ) وقوله تعالى (٢) عن إخوة يوسف ( تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ) وقوله تعالى (٣) ( وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونٌ هَذَا إِنْكُ قَدِيمِ ) وقوله تعالى عن إبراهيم (٤) ( أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ \* أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ) انتهى .

وقال العارف ابن عربي في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من ( فتوحاته ) في هذه الآية : المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سماعه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثه تعلق السمع بها . فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات . فله الحديث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذا كان الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً ( إِنَّهُ ) يعني القرآن (٥) : ( لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) فأضاف الكلام إلى الواسطة

(١) [ ٣٦ / يس / ٣٩ ] .

(٢) [ ١٢ / يوسف / ٩٥ ] .

(٣) [ ٤٦ / الأحقاف / ١١ ] .

(٤) [ ٢٦ / الشعراء / ٧٥ و٧٦ ] .

(٥) [ ٦٩ / الحاقة / ٤٠ ] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله (١) : ( فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السامعين بعد المشركين . فإن الذى يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية فى ( منهاج السنة ) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً .  
وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذى دل عليه الشرع<sup>٢</sup> والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويجبىء - فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى فى الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول (٢) ( فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ ) وقال (٣) ( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال ثم قال رحمه الله : قالوا - يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرها - وبالجملة فكل ما يحتج به المعزلة والشبهة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [ ٩ / التوبة / ٦ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٨ ] . (٣) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

أنكر هذا قبلكم من الساف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . ولفظ ( الحوادث ) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزه عن ذلك . ولكن يقوم به ماشاء ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهى وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى وخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزلياً لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالتقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ» أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله «وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشري رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملكا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) «قَالَ رَبِّي» حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه «يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ» أى لما أسروه «الْعَلِيمُ» أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَسِمِ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ )

« بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَسِمِ » أى أخلاطيراها في النوم « بَلِ افْتَرَاهُ » أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاحقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج ، لايزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ » أى مثل الآية التي أرسل بها الأولون. أى حتى نُؤمِّنَ له . ثم أشار تعالى إلى كذبهم في دعوى الإيمان بمجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ( مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ )

« مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات . أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا ، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقد مننا أن رقى الفروع البشرى في العهد النبوى ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية . فتذكر ثم أوضح جواب شبهتهم في منفاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ اِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء « فَسَأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ » أى العلماء بالتوراة والإنجيل « إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفي الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجج الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازى : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعالمى أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر - فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعمين . انتهى .

ثم بين تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ )

« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » أى جسدًا مستغنياً عن الطعام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى (١) ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) وفى هذا التعريف الربانى عن حال المرسل ، أ كبر رادع لأولئك المزورين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والغامة والحق ومن لا يزن عند ربه جناح بموضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى الجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الموادم لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأفون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشى بالأسواق ، وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها . ومحافضة على السمعة حموا جانبها .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٠ ] .

فتباً لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا الله . فما أجرهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار ! وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى (١)  
 ( وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أُخْلَدَ ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل .  
 تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وكونهم بشراً من تمام  
 النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والاتفاف بهم . إذ الجنس  
 أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ )  
 « ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم (٢) ( كَتَبَ اللَّهُ لِلْغَالِبِينَ أَنْتَا  
 وَرُسُلِي ) « فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه  
 « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن ،  
 محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )  
 « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحدثكم الذى تذكرون به  
 فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى (٣)  
 ( وَإِنَّهُ لَدِكُّكُمْ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ ، وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ ) وقيل : معنى ( ذِكْرُكُمْ ) موعظتكم  
 (١) [ ٢١ / الأنبياء / ٣٤ ] . (٢) [ ٥٨ / المجادلة / ١٢ ] . (٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٤٤ ] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق الفظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) إنكار توبيخى ، فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فى ما فى تضاعفه من فنون المواعظ والزواجر ، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ )

[١٢] ( فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ )

[١٣] ( لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ )

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ \* فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ » أى عذابنا النازل بهم « إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » أى يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال « لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ » أى من التمتع والتلذذ و ( فى ) ظرفية أو سببية « وَمَسْكِنِكُمْ » أى التى كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والفوازل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( قَالُوا يَا بُولِئِنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ )

[١٥] ( فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ )

[١٦] ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِينَ )

« قَالُوا » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَوَيْلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ \* فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى تلك الكلمة وهى ( يا ويلنا ) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى كنبات محصود « خَعِيدِينَ » أى هالكين ياخذ نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِمِينَ » أى بل للإِنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشري عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبارة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بهامن المنافع التى لاتعد والمرافق التى لا تحصى . وقال أبو السمود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتعبة للغايات الجميلة . وتنبية على أن ما حكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياها . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل ( لَعِمِينَ ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى (١) ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) وقوله تعالى (٢) ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .

وقوله تعالى :

(١) [ ١١ / هود / ٧ ] . (٢) [ ٥١ / الناريات / ٥٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » استئناف مقرر لما قبله من انتفاء

اللعب واللغو . أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبارة في رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمغافاته الحكمة . فيستحيل اتخاذنا له قطعاً . وقوله تعالى « إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إِنْ (إِنْ) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ اللغو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللغو بل عن إرادته .

وتزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللغو واللعب أو زيده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُ » أى يحققه بالسكينة كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالسكينة . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القفذ) الذى هو الرى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسر الشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشائه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه ، بزى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيع المجاز . لأن من رى فدمغ ترهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفي الآية إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ « وَلَكُمْ  
الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تنزهه عظمته عنه .  
ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً ، وبراءتهم من البُتُوَّةِ  
المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ  
عَن عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ )

« وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ملكاً وتديباً « وَمَن عِنْدَهُ » وهم الملائكة  
« لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعيون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ )

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى  
إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة - فإن ما سلف  
من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَمْ أَتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ )

« أَمْ أَتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم  
من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟  
 قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكروا عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا  
 يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم  
 لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض<sup>(١)</sup> (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث .  
 ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم<sup>(٢)</sup> ؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر  
 كثنائي القديم . فكيف يدعونه للجهاد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .  
 قلت : الأمر كما ذكرت . ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنيشار .  
 لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنيشار من جملة المقدورات . انتهى .  
 قال في ( الانتصاف ) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في  
 الإنكار .

ثم قال الزمخشري : وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن  
 ما استبعده من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء  
 والإعادة . انتهى .  
لطيفة:

سر قوله تعالى ( مِنَ الْأَرْضِ ) هو التحقير ، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية .  
 وجوز إرادة التخصيص . أي الآلهة التي من جنس الأرض . لأنها إما أن تفتح من بعض  
 الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضي  
 مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على  
 انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

(١) [ ٣١ / لقمان / ٢٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٧٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا» أى يتصرف فى السموات والأرض «ءَ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ» أى غيره

«لَفَسَدَتَا» أى لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كقال تعالى فى سورة (المؤمنون) (١)

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) قال

أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة ؛ أن الإلهية مستلزمة

للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجاداً وإعداماً وإحياءً

وإماتة . فبقاؤها على ما هما عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين

بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقى بعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل

التالى فسادها بعد وجودها ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى

باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تمدد الإله ، فإن توافق الشكل فى المراد ، تطاردت

عليه القدر ، وإن تحالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتقاء

المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى ( المقاصد ) أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً

كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا . وكلاهما محال . أما الأول فلأنه

لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين .

أو لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكال القدرة على ماهو

المفروض ، ولأستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلق الحبل عنهما ، كحركة جسم

وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح

بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٩١ ] .

التكوّن ، فقديره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والسكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخرا فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عماها عليه من النظام ، فقديره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العادى . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار السكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانى ، والمشار إليه فى الآية إقناعى . ولا يفيد العلم اليقينى فلا يصح الاستدلال به على هذا المطلب ، ومن فصل ذلك التفتازانى فى ( شرح العقائد النسفية ) قادحاً لما أشار إليه نفسه فى ( شرح المقاصد ) من كون الآية برهاناً ، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام ، أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعدد التمانع بالفعل بل بالإمكان . والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادها . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فيما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزها . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والسكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالمادة القاضية التى لم يوجد أحرما قط فى ملكين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلُّ الانفراد بالملك والعلو على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله ( وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ) ؟ وهذا إذا تؤمل لاتكاد النفس تخطر بقله نقيضه بالبال ، فضلاً عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر .

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعى . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى . وقد شنع عليه فى مقاله المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرماني فى الانتقاد .

قال العلامة المرجاني : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفي فى كتابه ( التبصرة ) وتابعه صاحب ( الكشف ) حيث شنع على أبي هاشم الجبائي تشنيعاً بليغاً . حتى نسبته إلى الكفر بقده فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لا تقف عند حد . ولا تزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله ( التوحيد ) إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أمتدناها فيما تقدم بنى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بيننا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعيينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إجماعية وتنال تحققها الخاص بها ، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلازمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كلٍّ صادراً على حكم يخالف

الأخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته . ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى . فتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات . لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممتنع بالبدهة . فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالي في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا بين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكلبوي: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكوينها في الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهي بعبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدالاتها تنفي تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما . والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدةانية بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، وتزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة .  
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ )

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْأَلُونَ » الضمير للعباد . أى يسألون عما يفعلون كقوله<sup>(١)</sup> ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) . قال الزمخشري : إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم ، أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ، ولا يجوز عليه خطأ ، ثم قال ( وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) أى هم مملوكون مستعبدون خطأءون . فما أخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ فى كل شىء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ) .

#### تنبيه

قال الإمام الغزالي فى ( المصنوعون به على غير أهله ) : وأما معنى قول الله تعالى ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) وقوله تعالى<sup>(٣)</sup> : ( لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار ، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام . وهو المعنى بقوله ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ) إذ لا يقال ( لِمَ ) قول إلزام . فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله ( لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٢٤ ] ( أَمْ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ )

(١) [ ١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٨٨ ] .

(٣) [ ٢٠ / طه / ١٢٥ ] .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ عَالِهَةٍ كَرِهَ اسْتِعْظَامًا لِكُفْرِهِمْ ، وَإِظْهَارًا لَجَهْلِهِمْ ، وَانْتِقَالًا إِلَى إِظْهَارِ بَطْلَانِ اتِّخَاذِهَا آلِهَةً ، مَعَ خَلْوِهَا عَنْ خِصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ . وَتَبْكِيتِهِمْ بِإِقَامَةِ الْبِرْهَانِ عَلَى دَعْوَاهُمْ . وَلِذَا قَالَ تَعَالَى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أَيْ دَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقْتَرُونَ . أَمَا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّهُ لَا صِحَّةَ لِقَوْلِ لَا بِرْهَانَ لَهُ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ .

قال أبو السعود : وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى « هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهيبهم لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلي ، ذكر أمتى أى عظمتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقتته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم الحاجة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبي ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ » وقرئ (يُوحَى) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . كما قال (١) (وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ) وقال (٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ ) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتره بعض المشركين من أن الملائكة بناته ، تعالى علواً كبيراً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ )

[٢٧] ( لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ )

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى مقربون « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كاهو شأن العبيد المؤدبين « وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ

وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ )

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علماً<sup>(١)</sup> ( وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهاجى : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدر على أدنى وجود معارضته . لأنهم لا يشفعون

(١) [ ٢ البقرة / ٢٥٥ ] .

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله <sup>(١)</sup> ( وَلَا يَسْمَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أُرْتَضَى ) كقوله <sup>(٢)</sup> ( مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) وقوله <sup>(٣)</sup> ( وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ )

« وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » الضمير فى ( منهم ) للملائكة . لتقدم ذكركم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشري رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأندر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال <sup>(٤)</sup> ( وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) قصد بذلك تفضيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله ( كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٨ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٥٥ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ / ٢٣ ] .

(٤) [ ٦ / الأنعام / ٨٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ،

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ )

« أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع في آياته الكونية ، الدالة على وحدته في ألوهيته، التي عمى عنها المشركون،

فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تخطو ولا تنبت ( فَفَتَقْنَاهُمَا )

أى بالمطر والنبات . فالفتق والرتق استعارة . ونظيره قوله تعالى <sup>(١)</sup> ( وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ \*

وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ) و ( الرجع ) لغة هو الماء و ( الصدع ) هو النبات لأنه يصدع

الأرض أى يشقها . وقوله تعالى <sup>(٢)</sup> ( فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ) أى كيف انفردنا في

إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته <sup>(٣)</sup> ( أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ) أى من المزن بعد أن لم يكن <sup>(٤)</sup>

( ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقًا متماسكة الأجزاء ، شققناها

شققًا مرثيًّا مشهودًا ، كما تراه في الأرض بعد الرى . أو شققًا بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى <sup>(٥)</sup>

( فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وكقوله <sup>(٦)</sup> ( قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الَّذِي فَطَرَهُنَّ ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ ( الفتق ) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ

( الرتق ) .

قال الرازي : وتحقيقه أن العدم نفي محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة . بل

(١) [ ١٦ / الطارق / ١١ و ١٢ ] . (٢) [ ٨٠ / عبس / ٢٤ ] .

(٣) [ ٨٠ / عبس / ٢٥ ] . (٤) [ ٨٠ / عبس / ٢٦ ] .

(٥) [ ٦ / الأنعام / ١٤ ] . (٦) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٦ ] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، ويفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن . جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى ( كَانَتْ رَتْقًا ) أى شيئاً واحداً . ومعنى ( فَفَتَقْنَهُمَا ) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباق الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالسواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هي مماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اه كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده ( وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى ( أَوَلَمْ يَرِ ) بصرية . وعلى قول أبي مسلم وما بعده ، علمية . على حد قوله تعالى لنبيه صلوات الله عليه (١) ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما يتقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحججة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى ( وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ) صيرنا كل شيء حتى بسبب من الماء ، لا يحيا دونه . فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى . كقوله تعالى (٢) ( وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ) وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية (٣)

(١) [ ١٠٥ / الفيل / ١ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ١٩ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٤٥ ]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة ، وأبلغ في الخطاب ، وألطف في المعنى .  
وقوله تعالى ( أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور ما يوجب حتماً من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جبالاً ثوابت « أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » أى لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لسكنت الأرض دائماً الاضطراب مما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير فى ( فيها ) للأرض . وتكرير الفعل لاختلاف المجموعين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثانى اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى ( وَسُبُلًا ) بدل من ( فِجَاجًا ) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك ، وأنه خالق ووسع لأجل السابلة . ومعنى ( يهتدون ) أى إلى مصالحهم .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ )

« وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا » أى على الأرض كالقبة عليها « مَّحْفُوظًا » أى عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَبَيْنَنَا وَفَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ) « وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبء ، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسارها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبه ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟

وقرى ( عن آيتها ) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزخمرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ )

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَالنَّهَارَ » ليتحركوا المعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالساج فى الماء . و ( الفلك ) فى اللغة كل شىء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية<sup>(٢)</sup> ( فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ \* الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اه . وقوله تعالى :

(١) [ ٧٨ / النبأ / ١٢ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ١٥ و ١٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ )

« وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ » نزلت حين قالوا

( نتربص به ريب المنون ) فكانوا يقدرون أنه سيموت ، فيشتمون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشكامة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحرصته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله <sup>(١)</sup> ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ وَاخِرُونَ ) .

قال ابن كثير : فقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحىٍّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليّاً ، أو نبياً أو رسولاً . انتهى .

وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر . وفي معنى الآية قول عروة الصحابي <sup>(٢)</sup> رضى الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ  
فقل للشَّامِتِينَ بنا : أفيقُوا  
كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخِرِينَا  
سِيلِقِ الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وقول الشافعي :

تَمَنَّى أَنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ  
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلاَفَ الَّذِي مَضَى :  
فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ  
هَيِّئِ لِأُخْرَى مِثْلَهَا ، وَكَأَنَّ قَدِ

(١) [ ٢٥ / الحجر / ٩ ] . (٢) قال صاحب ( رغبة الآمل ، من كتاب الكامل ) :

قائلهما هو فرّوة بن مُسيك المرّادي انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ )  
 «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ» أى تختبركم بما يجب فيه الصبر  
 من المصائب ، وما يجب فيه الشكر من النعم « فِتْنَةً » أى اختباراً . وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم)  
 من غير لفظه «وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» أى فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر .  
 قال الزمخشري : وإنما سمي ذلك ابتلاء ، وهو علم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم ،  
 لأنه في صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفي الآية إيماء بأن المقصود  
 من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للشواب والعقاب تقريراً لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق  
 بالفساد عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُكُمْ  
 ءِالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَدِّكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ )  
 «وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُكُمْ ءِالِهَتَكُمْ  
 وَهُمْ يَدِّكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ» عنى بهذه الآية مستهزؤ قريش ، كأبى جهل وأضرابه  
 ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيط لسب آلهم وتسفيه أحلامهم . كما قال  
 تعالى (١) (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا \* إِنْ كَادَ  
 لِيُضِلَّنَا عَنْ ءِالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ  
 أَضَلُّ سَبِيلًا ) وإضافة ذكر ( للرحمن ) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ،  
 أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن . هم كفرون ، أى فهم  
 أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ )

« خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك ( خلق زيد من السكر ) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع هو منه من الأركان ، إذاناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن ( عجلته ) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُورِيكُمْ آيَاتِي » أى نفاثى فى الدنيا كوقعة بدر . وفى الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الموعد من العذاب الأخرى ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لالتعمين وقته « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشري : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الممجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس يبدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفضاعة ما فيه ، وأن عجلتهم لجهلهم بمغبته ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ( لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ )

[٤٠] ( بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ )  
« لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ »

أى لا يدفونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » أى يدفع أحد عنهم . وجواب ( لو ) محذوف أى : لما استعجلوا . وقيل ( لو ) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتنام مدة الإلتظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرِسْلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ )

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرِسْلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، إيذاناً بكال الملايسة بينهما ، أو عين استهزائهم ، إن أريد بذلك العذاب الأخرى ، بناء على تجسم الأعمال .

فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز في النشأة الأخرى بصورة جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ  
مُعْرِضُونَ

[٤٣] ( أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ  
مِنَّا يُصْحَبُونَ )

« قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ » أى يحفظكم « بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم ( الليل ) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً . وفى لفظ ( الرحمن ) تشبيهه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيحاء إلى شدته . كغضب الحليم . وتقديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايى : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يمتد أهل عصركم ومن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يفترون فى ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعهم عن ذلك « بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ » أى لا يخطر ونه ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسه ، ويعبدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يسألوا عن الكالى « أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجلى ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللتنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التى يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهى لا تستطيع نصر أنفسها ولا هى بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده

ابن جرير<sup>(١)</sup> . ف ( فيصحبون ) بمعنى يجارون يقال ( صحبتك الله ) أى أجاارك وسلمك ، كما في ( الأساس ) . قال<sup>(٢)</sup> ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكى عنها ( أنا لك جار من فلان وصاحب ) بمعنى أجايرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٤٤ ] ( بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ )

« بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » إضراب عما توهموا ، ببيان أن الداعى إلى غيرهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا وتمعوا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لانأتهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى نقص أرض الكفر فنخر بها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلأهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن نزل من بأسنا بهم نحو الذى قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف . أفاده<sup>(٣)</sup> ابن جرير . وهذا كقوله تعالى<sup>(٤)</sup> ( وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لِمَلَّهْمُ يَرِجَعُونَ ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ »

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٤) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٧ ] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب ، الغالبون لنا ، وقدرأوا قهرنا من أحلنا بساحته  
بأسنا في أطراف الأرض ؟

وفي التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ )

« قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ » أى تنزيل الله الذى يوحىه إلى من عنده وأخوفكم

به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون ، لأن ذلك ليس إلى ، على ما فيه من الحكمة في هذه البعثة  
التي بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم  
وعنادهم ، بأن هذا الإنذار لا يجديهم ، بقوله تعالى « وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ »  
أى فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكرة ما وحي الله من المواعظ والذكري ، فيتذكرون بها  
ويعتبرون فينجزون إذا تلى عليهم ، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه ، فعل الأصم  
الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله ( إِذَا مَا يُنذِرُونَ ) مع أنهم  
لا يسمعون نذارة ولا بشاراة ، إما لأن المقام مقام إنذار ، أو لأن من لا يسمع إذا خوف ، كيف  
يسمع في غيره ، فهو أبلغ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ )

« وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى

ولئن أصابهم أذى شئ من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم في  
التصام والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

الطيفة :

في صدر الآية مبالغات. ذكر المس. وما في النفحة من معنى القلة. فإن أصل الفتح هبوب  
وأحمة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتفكير. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ  
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ )

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أئذروه . أى  
نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل  
لإرصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال  
ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة . كأنها فى  
نفسها قسط . أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم  
القيامة) للتعليل أو بمعنى ( فى ) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ  
شَيْئًا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِنْ كَانَ »  
العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » أى أحضرننا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال  
حبة الخردل . للوزن . وأنت لإضافته إلى الحبة « وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » أى وحسب من شهد  
ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سبيء ،  
منا . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ )

[٤٩] ( الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ )

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع في قصص الأنبياء ، تسليمة له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ) إلى قوله ( الْمُسْرِفِينَ ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتماء بضمونه . والمراد ب(الفرقان) التوراة وكذا ب(الضياء) (والذكر) . أى وبالله لقد آتيناها وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ» أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] ( وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ )

« وَهَذَا » أى القرآن الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى مع ظهور كون إزاله كإيتاء

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٧ - ٩ ] .

التوراة . وفي الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهلناها لخلقتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحفيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها ، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوى متبسع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ ( فى ) الظرفية دلالة على تمسكهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من ( ضالين ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ \* قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » قال الزمخشري رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتأثيل . وكونه للتأثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلائله صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقاتلهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم <sup>(١)</sup> (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَبُّكُمْ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِنَ الشَّاهِدِينَ) أى المبرهين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاقل منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ)

« وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » لأحتالنى لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جُنُودًا » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لا تتحلم إلى هذا الحد . فهو عجزهم في الدفع عن أنفسهم . فتوقع عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه في ذلك . فضلاً عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لجرأتها على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتعظيم . أو لإفراطه فى التجديذ والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ- إِبْرَاهِيمُ)

[٦١] (قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ- إِبْرَاهِيمُ \* قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا الحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا اِبْرَاهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ وَكَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

«قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا اِبْرَاهِيمُ \* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ وَكَبِيرُهُمْ هَذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله «فَسَأَلُوهُمْ» أى يجيبوكم «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» أى والأظهر عجزهم الكلى المانع من القول بالهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه عن إزاهم الحجة ، وتبكيهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانتها بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكانه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارةه : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُ وَكَبِيرُهُمْ هَذَا) فإنما هو تقرير لهم وتوبيخ كما قال تعالى<sup>(١)</sup> (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيل له ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

(١) [٤٤ / النخاع / ٤٩] .

أنه محقق لأن كبيرهم فعله . إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، قصداً إلى تحقيق ذلك . وجليُّ أن مراده عليه السلام ، على كلِّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبيء عنه قوله ( فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام ( إن كانوا يسمعون أو يعقلون ) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ )

« فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر « فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ » أى بهذا السؤال أو بعبارة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، لا من كسرهما ، فلم تنسبوه إلى الظلم بقولكم ( إِنَّهُ وَلِمَنِ الظَّالِمِينَ ) ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ )

« ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياءً من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ » أى ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ )

[٦٧] ( أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

« قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ \* أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى قبح صنيعكم فى عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر فى الكشف فى قوله تعالى ( ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ) أربعة أوجه . وحاصلها كما فى العناية - أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة فى تظلم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة فى تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها فى معرض الألوهية . فقوله ( لَقَدْ عَلِمْتُمْ ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله ( أَفَتَعْبُدُونَ ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق فى قولهم ( لَقَدْ عَلِمْتُمْ ) لأنه نفي لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية ، وسمى ( نكسا ) وإن كان حقاً ، لأنه ما أفادهم مع الإصرار . ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة فى إطراقهم خجلاً وقولهم ( لَقَدْ عَلِمْتُمْ ) لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم . أو النكس مبالغة فى الحيرة وانقطاع الحجة . و ( أف ) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما فى كتب اللغة . قال الزمخشري : أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ولما عجزوا عن المحاجة أخذوا فى المضارة ، شأن البطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من الحق . ولم يبق له مفرغ إلا مناصبته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ )

« قَالُوا حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به « وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ » أى بالانتقام لها « إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة ، فلا يليق به غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ )

« قُلْنَا » أى تعجزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة . وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما فى قوله <sup>(١)</sup> ( كُونُوا قِرَدَةً ) ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بأمور مطيع ، وتخفيفها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم : المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً ، كقوله <sup>(٢)</sup> ( أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيكونه . فإن النار جواد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازى : لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها - أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والاحتراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شىء قدير . وثانيها - أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه . كما يفعل بحزنة جهنم فى الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد المحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره السمك فى النار .

(١) [ ٢ / البقرة / ٦٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٨٢ ] .

وثالثها - أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه .  
قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله ( يَتَنَارُ كُونِي بَرْدًا ) أن نفس النار  
صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ )

[٧١] ( وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ )

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ،  
فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشري : غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمسكت .  
وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى  
الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء  
وإزال الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنى  
والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم . ثم بين بركته  
تعالى على إبراهيم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ )

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ » أى بدعوته<sup>(١)</sup> ( رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ) « وَيَعْقُوبَ  
نَافِلَةً » أى زيادةً وفضلًا من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح  
بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ » بالاستقامة والتسكين فى الهداية .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ )

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله<sup>(١)</sup> ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذنا . قال الزمخشري : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، وأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخل بها ويتناقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( وَلَوْ طَآءَ أَيْدِيَهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ )  
[٧٥] ( وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ )

« وَلَوْ طَآءَ أَيْدِيَهُمْ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالهوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ » أى من عذابها « الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ »

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٤ ] .

يعنى اللواطه ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطى منكساً من مكال عال ، وطرح الحجاره عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقَيْنَ \* وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » أى فى أهلها « إِنَّهُ وَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَحَا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ )

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ » أى دعا ربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله<sup>(١)</sup> ( أُنِّى مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ )<sup>(٢)</sup> ( رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ) « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَمِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فىهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ )

« وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتبهاً للانتصار والانتقام من قومه « الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيهم .

(١) [ ٥٤ / القمر / ١٠ ] . (٢) [ ٧١ / نوح / ٢٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ )

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلاً « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ )

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحكومة، المفهومين من السياق « سُلَيْمَانَ » أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لاقضاء أبيه . روى (١) عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل ، ففضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذ أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرفوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » أى وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلماً كثيراً ، لاسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكماً شرعياً .

(١) انظر ابن كثير ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

### تنبيهات :

الأول - استدلال بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن

كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بين في الأصول . ورد بأن مفهوم قوله ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام ، يدل على أنه المصيب للحق عند الله . ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى . والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه ، دل على أن كلامهما مصيب . وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود عليه السلام ، لجواز كون كل مصيباً . ولكن هذا أرفق وذاك أوفق ، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدلل بهذه الآية كل . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا في ( العناية ) .

وجاء في ( فتح البيان ) مأمثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين<sup>(١)</sup> وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبي ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين . وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فاللزوم مثله . وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين ، بالحلل والحرم ، حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فاللزوم مثله . وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاد في تلك

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام - ٢١ - باب أجر الحاكم إذا اجتهد

فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأفضية ، حديث رقم ١٥ ( طبعنا ) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريد الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانتطاع المجتهدين . واللازم باطل فاللزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرّون على إصابة الحق في كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب .  
قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثاني - دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان بوحى لما أوتر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى (١) ( عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ) فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله (٢) ( لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحى ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضاً ، فلا استنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

قال الرازى : إذا غلب على ظن نبي أن الحكم في الأصل معتل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين التقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلو عن التقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

(١) [ ٩ / التوبة / ٤٣ ] . (٢) أخرجه البخارى في : ٢٥ - كتاب الحج ،

٨١ - باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ ، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ ( طبعتنا ) .

باطل ببديهية العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس - وهذه النكته هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس . وهي فائمه أيضا في حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثني عليهما . وقد تقدم أولا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفس لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهرى وقتادة . ومن عمم الضمان فسره بالرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدورها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان في هذه الواقعة . إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى (١) ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياء هذا قطعت غزلا لي . فقال شريح : نهارة أم ليلا ؟ فإن كان نهارة فقد برئ صاحب الشيا . وإن كان ليلا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه (٢) الإمام أحمد وأبو داود (٣) وابن ماجه (٤) من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب

- (١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .  
 (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .  
 (٣) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٩٠ - باب المواشي تفسد زرع قوم ،  
 حديث رقم ٣٥٧٠ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٣ - باب الحكم فيما أفسدت المواشي ، حديث رقم ٢٣٣٢ (طبعتنا) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . ففضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استفضى أناه الحسن ، فبكي . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى ( وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ . . . ) الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذمّ داود . ثم قال ( يعنى الحسن ) : إن الله آخذ على الحكماء ثلاثا : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا<sup>(١)</sup> ( يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) وقال<sup>(٢)</sup> ( فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ ) وقال<sup>(٣)</sup> ( وَلَا تَشْتَرُوا بِئَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ) . ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح<sup>(٤)</sup> البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ ( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ) فهذا الحديث يردّ نصّا ما توهمه إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار . وفي السنن<sup>(٥)</sup> : ( القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . رجل علم الحق

(١) [ ٣٨ / ص / ٢٦ ] . (٢) [ ٥ / للمائدة / ٤٤ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ٤١ ] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ٢ - باب فى القاضى يخطئ ،

حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدَةَ .

وأخرجه ابن ماجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ،

حديث رقم ٢٣١٥ ( طبعتنا ) .

وقضى به فهو في الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار) .

ثم بين سبحانه ما خص كلام من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ » أى سخرننا الجبال والطير يقصدن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخَلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه ( الزبور ) وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مر<sup>(١)</sup> النبي ﷺ على أبي موسى الأشعريّ وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : لقد أوتى هذا زمراً من زمائر آل داود . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لحبّرت لك تحبيراً .

وقال أبو عثمان الهندي : ما سمعت صوت صنج ولا ربط ولا زممار مثل صوت ابن موسى رضى الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز . لأنها جماد . والتذييل بقوله ( وَكُنَّا فَاعِلِينَ ) إشارة إلى أنه ليس بيدع في جانب القدرة الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيباً . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (ص)<sup>(٢)</sup> (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ \* إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ \* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ ) .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٣١ - باب حسن الصوت

بالقراءة ، حديث رقم ٢٠٩٧ .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا)

(٢) [ ٣٨ / ص / ١٧ - ١٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ

شَاكِرُونَ )

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع الملبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفاً ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها في بعض كما قال تعالى (١) ( وَالنَّارُ لَهُ الْوَلْدَانُ ذُرِّيَّتَيْنِ وَأَسْوَءَ الْبِلَادِ أُولَئِكَ الْمَكَامَاتُ الَّتِي كُنَّا نَعْمَلُ فِيهَا وَنَحْنُ مُسْتَكْبِرُونَ \* أَنْ أَعْمَلَ سَمِيعَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ) أى لا توسع الحلقة فتتعلق المسامير . ولا تغلظ المسامير فتتعد الحلقة . ولهذا قال « لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما أهدى عبده داود فعله ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم في المعامع حياتكم . وفي إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة في التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيحاء إلى التقصير في الشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا

فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ )

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وهى بيت المقدس « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ » أى ما تقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى (٢) ( فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ) . قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالخواة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ قلت : كانت في نفسها رحية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيه أبعثت به في مدة يسيرة على ما قال (٣) ( غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [ ٣٤ / سبأ / ١١٠ و١١١ ] . (٢) [ ٣٨ / ص / ٣٦ ] . (٣) [ ٣٤ / سبأ / ١٢ ] .

أن تكون رضاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال في ( الانتصاف ) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجاني منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَعْصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ )

« وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَعْصُونَ لَهُ » أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى<sup>(١)</sup> ( يَعْْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ ) « وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ » أى مؤيدين ومعينين .

تفسيره :

الشياطين المذكورون ، إما مرده الإنس وأشداؤهم ، وإما مرده الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائى : كيف يتهيا لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدر على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد فى عظامهم ، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [ ٣٤ / سبأ / ١٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۗ أٰنِىٓ مَسْنِىَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِىْمِىْنَ )

[٨٤] ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۗ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّ ۙ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۙ وَذِكْرَىٰ لِلْعٰبِدِىْنَ )

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۗ أٰنِىٓ مَسْنِىَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِىْمِىْنَ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۗ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّ ۙ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۙ وَذِكْرَىٰ لِلْعٰبِدِىْنَ » .

أى اذ كر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاءه ربه في كشف ما نزل به ، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه في رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر ، وأن عاقبة العسر اليسر . وأن لك الأسوة بمثل هذا النبي الصبور ، فيما ينزل أحياناً بك من ضر . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاء . كما في الحديث (١) ( أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ) .

وإن من أسباب الفرج دعاء تعالى والابتهاال إليه والتضرع له ، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها . لأن الدنيا ليست دار جزاء . وإن عاقبة الصدق في الصبر ، هي توفية الأجر ومضاعفة البر . وقد روى أن أيوب عليه السلام ، لما امتحن بما تقدمه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعانى من قروح جسده آلاماً ، وصبر وشكر ، رحمه مولاة فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف ما فقدته . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاد أولاده إلى الجليل الرابع . ولذا قال تعالى ( وَذِكْرَىٰ لِلْعٰبِدِىْنَ ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء ،

عن سعد .

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابروا كما أثيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفة، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُعار من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواسيه وآل بيته، وبتزول مرض شديد به ، عدم معه الراحة ولذة الحياة ، غرائب . إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها . لما داخلها من الزيج ، وتوسع بها في الدخيل ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش . ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجله في تنزيه الحكيم ، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا بوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصل .

#### تنبيه .

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنياً من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائحة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت. ومن جبل سعيير بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ )

[٨٦] (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ )

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » أي على القيام بأمر الله، وعلى شدايد النوب ، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى ، فقيمهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا» أي في النبوة أو في نعمة الآخرة «إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ» أي الكاملين في الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي .

وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فإله أعلم .  
 وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ )

[٨٨] ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ النِّعَمِ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ )

« وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ النِّعَمِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » أي اذكر ذا النون يعني صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليمتد في نبته فؤادك ويقوى على الصبر على مايقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة ( الصافات ) وفي سورة ( ن ) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى - من أرض الموصل ، كرسى سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . فخشي أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر ، أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يفتد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فافترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فدفنوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهياً الله حوتاً ليونس فابتلمه ، فكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى <sup>(١)</sup> ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَدَابَ الْعَزْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ )

### تنبيهات :

الأول - يونس عليه السلام يسمى في التوراة ( يونان ) وهو عبراني . ويقال إنه من جت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نبي قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني - أكثر المفسرين ( كما حكاه الرازي ) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإيقاقه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولاً ، أن يترك ولا يقاص . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبي كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في ( مغاضباً ) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضى بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد ( مفاعلة ) وقد استدلل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول السكرامية في المرجئة ( كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد )

(١) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] .

وقول الباقلانيّ من الأشعرية: (على ما حكاه ابن حزم في الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم في هذه الآية وأشباهاها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بمد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبيّ معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذي ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . وتقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل ينههم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه في الدنيا ، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدناه وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال ( في الكلام على يونس عليه السلام ) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم بغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فن زاد هذه الزيادة كأن قال على الله الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبيٌّ من الأنبياء ؟ فعلنا يقيفاً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عز وجل . وأما قوله تعالى ( فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبيّ مفضل على الناس في العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبيّ يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك في أن من نسب هذا للنبيّ ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه

رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ( لا تفضلوني على يونس بن متى ) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وضح أن معنى قوله ( فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عز وجل ، محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب<sup>(٣)</sup> الحوت، فنعم، نهى الله عز وجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاوله لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحقq الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها، للبث معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه . فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدري أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوها توسعاً يميم رونق التركيب ونصاعة بلاغته . ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آيه تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاما . وبلاغة وانتظاما . فلا ترى فى كله إلا المختارات لطفاً ، ولا فى جملة إلا الفخيمات تركيباً ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كنيائاته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب، وقوة العتب وذلك لعزة الجنب الإلهى والمقام الربانى . فالعربى البليغ طبعاً ، الدائق جبلة ، إذا تلى عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء، ٣٥ - باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠ ، عن ابن عباس، ونصه : ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى . (٢) [ ٨٩ / الفجر / ١٦ ] . (٣) [ ٦٨ / القلم / ٤٨ ] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه يبأفقه غاضب مولاه، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . ويفلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع في شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقتة الرحمة . هذا يحمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذي له في خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجث ، التي لم يزل يصطاد منها في هذا العصر ، وفي بطونها أجساد الفاس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذي ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم ( بالزفا ) وهو من كبار الحيتان يكون في بحر الروم ، واسع الخلقوم ، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى في الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام في جوف هذا الحوت ، ولبث ما الكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع في قوله ( فِي الظُّلْمَتِ ) إما على حقيقته ، وهي ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرها . أو هو مجاز ، يحمل الظلمة لشدتها وتكاثفها في بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزخسرى ونظره بآية<sup>(١)</sup> ( ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ) .

الخامس : قوله تعالى ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ) أي دعاؤه ( وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الظُّلُمِ ) بمعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل ( فنجيناه ) كما قال في قصة أيوب عليه السلام<sup>(٢)</sup> ( فَكَشَفْنَا ) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [ ٢ / البقرة / ١٧ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٨٤ ] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته . وردّ بأن ( الفاء ) في قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيرى . والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة ، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال . فلما أجل في الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنبا . كما أشار إليه بقوله ( مِنَ الظَّالِمِينَ ) فما أوماً إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فلاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعد تفسيره له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله ( وَكَذَلِكَ نُجِى الْمُؤْمِنِينَ ) أى إذا كانوا في غموم ، وأخلصوا في أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى في الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذى ( دعوة<sup>(١)</sup> ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له ) . وقوله تعالى :  
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَرَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ )

« وَزَكَرِيَّا » أى واذكر خبره « إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَرَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبياً ، ولا يتركه فرداً وحيداً بلا وارث ، وقد تقدمت القصة مبسوطه في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضا . وقوله « وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ)

والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨١ - باب حدثنا محمد بن يحيى .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالي في ( شرح الأسماء الحسنى ) : الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ )  
 « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » أى دعاءه ، « وَوَهَبْنَا لَهُ وَيَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوْجَهُ » أى أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أى كانوا يبادرون في كل باب من الخير . وإيثارُ ( فى ) على ( إلى ) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير . لأن ( إلى ) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أى ذوى رغب ورهب ، أو راغبين فى الثواب راغبين للإجابة « وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ » أى محبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ )

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى اذكر نبأ التى أحصنته إحصاناً كلياً ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت <sup>(١)</sup> ( وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ) والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها ، وتزئيمها عما زعموه فى حقها ، بادية بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » أى نفخنا

(١) [ ٣ / آل عمران / ٤٧ ] و [ ١٩ / مريم / ٢٠ ] .

الروح في عيسى فيها . أى أحييناه في جوفها . فنزل نفخ الروح في عيسى ، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فملنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أى أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذى نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا » أى نبأها « آيَةً لِلْعَالَمِينَ » أى فى كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتيهما إتيان الرزق لمريم فى غير أوانه . وتتمير الفخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها فى المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هلا قيل ( آيَتَيْنِ ) كما قال (١) ( وَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّهَارِ آيَتَيْنِ ) ؟ قلت : لأن حالهما بجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير خل . انتهى . وقيل : المعنى وَجَعَلْنَا هَا آيَةً وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ )

« إِنَّ هَذِهِ مِ » أى علة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لا شريك له « أُمَّتُكُمْ » أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى غير مختلفة . بل هى ملة واحدة . أى أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد . كما قال تعالى (٢) ( إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ) « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى لا إله لكم غيرى « فَاعْبُدُونِ » أى ولا تشركوا بى شيئاً .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٢ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

تنبية :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما في قوله <sup>(١)</sup> ( إِنَّا وَجَدْنَا  
 ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ) أى على دين مجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير  
 من المفسرين فى هذه الآية ، وفى آية <sup>(٢)</sup> ( يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا  
 صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ \* وَإِنَّ هَذِهِ لَأُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ )  
 وتطلق ( الأمة ) بمعنى الجماعة ، كما هى فى قوله تعالى <sup>(٣)</sup> ( وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ  
 وَبِهِ يَعْتَدُونَ ) أى جماعة . وكما فى قوله <sup>(٤)</sup> ( وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ  
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هى  
 بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم  
 اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السنين كما فى قوله تعالى <sup>(٥)</sup> ( وَإِنَّ آخِرَنَا عَنْهُمْ  
 الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ) وفى قوله ( وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به ،  
 كما فى قوله <sup>(٦)</sup> ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله <sup>(٧)</sup>  
 ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة ، على  
 ما ذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله فى تفسير  
 آية <sup>(٩)</sup> ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ) .

- |                             |                                   |
|-----------------------------|-----------------------------------|
| (١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] .  | (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٢ و ٥١ ] . |
| (٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨١ ] . | (٤) [ ٣ / آل عمران / ١٠٤ ] .      |
| (٥) [ ١١ / هود / ٨ ] .      | (٦) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] .          |
| (٧) [ ١٦ / النحل / ١٢٠ ] .  | (٨) [ ٣ / آل عمران / ١١٠ ] .      |
| (٩) [ ٢ / البقرة / ٢١٣ ] .  |                                   |

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كَلَّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ )

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كَلَّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ » أى تفرق الناس في دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشري رحمه الله : والأصل ( وتقطعتم ) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه ينهى عليهم ما أفسدوه ، إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقسمونه . فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ وَكِيلُونَ )

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ وَكِيلُونَ » أى من عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا في دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه في أمره ونهيه ، وهو مقر بوحداية الله ، مصدق وعده ووعيده ، متبرىء من الأنداد والآلهة ، فلا كفران لسعيه ، بل يشكر الله عمله هذا ، ويثيبه ثواب أهل طاعته . وقوله تعالى ( وَإِنَّا لَهُ ) أى لسعيه المشكور ( وَكِيلُونَ ) أى مثبته في صحيفه أعماله ، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من ( كفر فلان النعمة كفراً وكفراناً ) وأوثر ( لا كفران ) على ( لا تكفر ) للمبالغة . لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بمومه . وعبر عن العمل

بالسعي لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى (١) ( وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحوق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ )

« وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله (٢) تعالى ( أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ) وقوله (٣) ( فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ) وزيادة ( لا ) هنا لتأكيد معنى النفي من ( حرام ) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعمهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تنمة ما قبلها ، و ( لا ) فيها على بابها . وهى مع ( حرام ) من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القرية المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض بإبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسمى أحد . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا الظير . وفيه ما يخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٩ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٣١ ] . (٣) [ ٣٦ / يس / ٥٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُفْلٍ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ )

« حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة من أجناسٍ شتى « وَهُمْ مِّن كُفْلٍ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ، متجندين لقمه أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] ( وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا

قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ )

« وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ، قائلين « يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » أى لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإياء والمعاد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ )

[٩٩] ( لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ )

[١٠٠] ( لَهُمْ فِيهَا زَفيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ )

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى ما يرمى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ \* لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب . ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أي ترديد نفس تنفخ منه الصلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أي من الهول وشدة العذاب . ثم بين تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

[١٠٣] (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ

الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ » أي الخصلة الحسنى ، وهي السعادة أو التوفيق « أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم في غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أي صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعمها يفرعونهم « وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ \* لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أي للحشر كما قال تعالى ( وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ) « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أي تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أي في الدنيا ، وتبشرون بنيل الثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [ ٢٧ / النمل / ٨٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ  
نُعِيدُهُ ، وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ )

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ )

[١٠٦] (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ )

[١٠٧] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ )

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى اذكره . أو ظرف لـ ( لا يحزهم ) أو لـ ( تتلقاهم ) .  
والطى ضد النشر . وقوله « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب .  
واللام فى ( للكتب ) لام التبيين . ولذلك قرئ ( الكتاب ) بالافراد . أو بمعنى ( من )  
وفيه قرب من الأول ، أو ( الكتب ) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها .  
فاللام بمعنى ( على ) وهو ما اختاره ابن جرير (١) .

#### تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبي صلوات الله عليه ،  
كما رواه أبو داود والنسائي وغيرها ، فأثر منكر لا يصح .  
قال ابن كثير (٢) : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبي داود .  
منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى .  
وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير (٣) وقال : لا يعرف فى الصحابة أحدا سمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وَكُتِّبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث . والصحيح عن ابن عباس

أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية<sup>(١)</sup> (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطى السماء كناية عن  
انسكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من  
الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَوَعْدًا  
عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى منجزين إياه . ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز النبي عنه ،  
وإيرائه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَالْقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ  
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين  
منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و (الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام ،  
ويقال : المراد به كل كتاب منزل . والذكر - قالوا - التوراة أو أم الكتاب . يعنى اللوح الذى  
كتب فيه كل شىء قبل الخلق ، والله أعلم . وقوله تعالى « إِنَّا فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِّقَوْمٍ عٰبِدِينَ »  
إشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . أو إلى العبرة  
فى إرث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عٰبِدِينَ)  
أى يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين  
وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَسْلَمِينَ » أى وما أرسلناك بهذه الحنيفة  
والدين الفطرى ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بمثت به سبب لسعادة الدارين . وفى  
جعله نفس الرحمة مبالغة جليلة . وجوز كون (رحمة) مفعولاً له . أى للرحمة ، فهو نبي الرحمة .

(٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٧ ] .

تبيينه :

قال الرازى : إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا . أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب . فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقاليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريباً له . قال الله تعالى (١) ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ) إلى قوله تعالى ( وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ) وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من النذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بعثته صلوات الله عليه ، في ( الشذرة ) التي جمعها في سيرته الزكية ، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبيل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، ما بين مشبهه لله بخلقه ، وملحد في اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، وواد للبنفات وأكل للدماء والميتات ، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتكهنه ، وتأليه للأخبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعي الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بمعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسر يسراً . فإن النوائب إذا تهاوت انتهت ، وإذا تواتت تولت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ،

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] .

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والمار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق . قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَلَائِكِينَ ) وقال تعالى (١) ( لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ وَأَنبَأَهُمْ وَيُمَسِّحُ لَهُمُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) انتهى ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكُفْرِ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أُنْتُمْ مُّسْلِمُونَ )  
 [١٠٩] ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ يَبْعِدُ مَا تُوْعَدُونَ )

[١١٠] ( إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ )

[١١١] ( وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ )

[١١٢] ( قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ )

« قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكُفْرِ إِلَهٌ وَاحِدٌ » أي ما يوحى إلى ، إلا استئناده تعالى بالوحدانية في الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه في جنبه . فهو قصر دعائي « فَهَلْ أُنْتُمْ مُّسْلِمُونَ » أي منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِن تَوَلَّوْاْ » أي عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أي أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، تؤمن بها ونجني ثمرات سعادتها في الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمني علمه ، ولم يطلعني عليه كما قال « وَإِن أَدْرَىٰ » أي وما أدري « أَقْرَبُ »

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٦٤ ] .

أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ « أَى من الفتح عليكم ، وإيراث أرضكم غيركم ، ولحوق الذل والصغار بمصيانكم » إِنَّهُ وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ « أَى فسيجزيكم على ذلك » وَإِن أَدْرَى أَعْلَمُهُ وَفِتْنَةٌ لَّكُمْ « أَى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة في افتتانكم . أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . ف(الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب ، أو هو بمعناه الأصلي . فهو استعارة مصرحة . وقوله تعالى « وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ » أَى تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتع بمعنى الإبقاء والتأخير « قُلْ » وقرئ ( قُلْ ) « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أَى افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ) « وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أَى من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

قال الرازى : قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله ( قل رب احكم بالحق ) لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان لهم الغاية . وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه . فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليمة له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم . فإذا أبوا إلا التمادى في كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره . وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب . وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالأستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق .

تم الجزء الحادى عشر ء ويليهِ ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر ، وفيهِ تفسير سور : ٢٢ - سورة الحج ، و ٢٣ - سورة المؤمنون و ٢٤ - سورة النور و ٢٥ - سورة الفرقان

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٨٩ ] .